سادسا: حياة محمد ﷺ مع عمّه:

انتقل محمد ﷺ بعد وفاة جده إلى دار عمه أبي طالب وكان اسمه عبد مناف، للعيش في كنفه مع بقية أفراد عائلته. وقد تولى أبو طالب كفالة الرسول ﷺ على الرغم من أنه لم يكن أكبر أخوته، فقد كان الحارث أكبر منه سنا، ولم يكن أكثر إخوانه مالاً، فقد كان العباس أغنى منه كثيرا[4]. بل إن المصادر التاريخية تكاد تجمع على أن أبا طالب كان لا مال له، إلاّ أنه كان يحب ابن أخيه محمدًا ﷺ "حبا شديدًا لا يحبه ولده"[5]. لذا فقد رويت عنه العديد من صور الرعاية والعناية التي تعبّر عن هذا الحب. فقد روى أنه كان "لا ينام إلا إلى جنبه، فيخرج معه..... وكان يخصه بالطعام"[6].

وقد روي أن أبا طالب كان يتجهز للسفر إلى الشام في إحدى القوافل التجارية لأهل مكة، فتعلق به رسول الله ﷺ وتوسل إليه أن يأخذه معه بقوله: "يا عم إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم، فرق له أبو طالب، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا"[7].

وقد اختلفت الروايات في تقدير عمر الرسول ﷺ حينما صحب عمه في هذه الرحلة، فقد ذكر الطبراني أن عمره كان تسعة سنوات[8]، بينما أورد ابن قتيبة وابن سعد رواية تشير إلى أن عمره كان اثنتي عشر سنة[9]، وقد أتاحت هذه الرحلة الطويلة للرسول ﷺ على الرغم من صغر سنه أن يشاهد العديد من القرى والمدن في خارج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلده، فرأى "بصرى ومدين ووادي القرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لا تقاس بها مكة، ولا أي موضع آخر في الحجاز وشاهد رهبانًا ونصارى يقيمون في تلك الأماكن"[1]. ولا بد أن تلك المشاهد كان لها أثر في توسيع دائرة تفكيره واهتمامه ضمن حدود معينة.

لقد أوردت العديد من المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ كان يعمل في صغره وصباه في رعي الغنم، فقد رعى الغنم في صغره مع أخيه في الرضاعة عندما كان عند حليمة السعدية، كما أوضحنا ذلك، كما رعى الغنم في مكة بعد عودته إليها. فقد روي أن الرسول ﷺ قال يوما لأصحابه لقد رعى الغنم لأهل مكة بالقراريط[2]. وبدا أنه قد مارس هذه المهنة في مكة بعد انتقاله إلى بيت عمه أبي طالب بهدف مساعدة عمه اقتصاديا. فقد أورد ابن إسحاق رواية في هذا المجال تؤكد أنه كان في سن الفتوة حينما كان يمارس مهنة رعي الغنم. فقد ذكر ابن إسحاق رواية في هذا المجال تؤكد أنه كان في سن الفتوة حينما كان يمارس مهنة رعي الغنم. فقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان؟ فقال: علي، قال: فدخلت حتى أذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله عز وجل على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس..."[3].

إن النص المتقدم يشير بالإضافة إلى ما ذكرنا أن الرسول ﷺ كان فتى جادًا لا تستهويه مظاهر اللهو والطرب التي تستهوي عامة الشباب من قومه. وربما كان ذلك أمرًا طبيعيا لشخص نشأ في ظروف صعبة كتلك الظروف التي عاش في ظلها الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى انتقاله إلى بيت عمه أبي طالب.

وإن مما يؤكد هذا البعد في شخصية الرسول ﷺ مشاركته في حرب الفجار، وكانت هذه الحرب قد وقعت بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان من هوازن. وقد دخلت قريش هذه الحرب لمناصرة حليفتها كنانة. وكان السبب الذي هاج هذه الحرب أن أحد أفراد قبيلة قيس عيلان تولى حماية قافلة تجارية (لطيمة) تعود للنعمان بن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنذر متجاوزًا في ذلك على حقوق أحد أفراد قبيلة كنانة في حمايتنا فقام البراض بن قيس (من كنانة) بقتل عروة الرحال (من هوازن) واستولى على القافلة، فأدى ذلك إلى نشوب الحرب. وقد سميت هذه الحرب بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرام التي لا يجوز فيها القتال[1].

"وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس"[2]. وقد انتهت هذه الحرب بالصلح بين الطرفين[3].

وقد ذكر أن الرسول ﷺ شارك في هذه الحرب إلى جانب أعمامه. وقد روي عنه أنه قال: "كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها"[4]. وقد ذكر ابن إسحاق أن حرب الفجار هاجت "ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة"[5]، وقد ذهب إلى نفس القول كل من ابن قتيبة[6] والطبري[7] وابن سعد[8] والمسعودي[9]. غير أن ابن هشام يروي أن عمر رسول الله ﷺ كان في ذلك الحين أربع عشر سنة أو خمسة عشر سنة[10]. ويبدو أن ابن هشام قد قبل هذه الرواية لأنه كان قد ذكر أن دور الرسول ﷺ في هذه الحرب كان مقتصرًا على مساعدة أعمامه في القتال وليس مباشرة القتال بنفسه، غير أن أغلب الروات كما قدمنا تذهب إلى أن عمر الرسول ﷺ كان عشرين عامًا وأنه قد ساهم بصورة فعلية في القتال إلى جانب أعمامه، وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال عن يوم الفجار: "قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت"[11].

ويبدو أن الرسول ﷺ بعد أن بلغ مبلغ الرجال أخذ اهتمامه بالقضايا العامة يتزايد، وأخذ قومه يلحظون في شخصيته هذا الجانب، لذا فإنهم حين اجتمعوا في دار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد الله بن جدعان لعقد حلف الفضول - كما أوضحنا ذلك سابقًا - دعوا الرسول ﷺ لحضور هذا الاجتماع، وكان عمره حين ذاك عشرين عامًا[1]، وقد كانت مساهمة الرسول في حضور هذا الاجتماع موضع اعتزازه وفخره. لذا فقد روي عنه أنه قال: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[2].

لقد استهدف حلف الفضول مساعدة "المظلوم حتى يؤدى إليه الحق ..... وفي التأسي في المعاش"[3]، وهي أهداف تلتقي مع المثل العليا التي جاء بها الإسلام، فكان من الطبيعي أن يؤكد الرسول ﷺ بعد نزول الرسالة عليه أنه لو يدعى في الإسلام لعقد مثل هذا الحلف فإنه سيلبي الدعوة.

كان محمد ﷺ يعيش في بيت عمه أبي طالب، وكان عمه كثير العيال، وليس له مال[4]، وقد حاول الرسول ﷺ في صغره وصباه أن يساعد عمه فعمل في رعي الغنم لقاء أجور بسيطة (قراريط) ولا بد أن الرسول ﷺ حين جاوز مرحلة الصبا وبلغ مبلغ الشباب حاول ترك مهنة الرعي والاشتغال بعمل يناسب سنه ويدر عليه ربحًا وفيرًا. وكان المجال الوحيد المتاح له هو العمل في التجارة، مهنة آبائه وأجداده.

ولا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عمل الرسول ﷺ قبل أن يصل إلى سن الخامسة والعشرين ويتصل بخديجة للعمل في تجارتها، غير أن الروايات التي تذكرها المصادر عن الدوافع التي حملت خديجة لتكليفه بالعمل في تجارتها توحي بأنه كان صاحب خبرة في هذا المجال وأنه كان يتمتع بسمعة طيبة، مما دفع خديجة لمحاولة إغرائه للعمل لديها بدفع أجور تصل إلى ضعف ما تدفعه لغيره من الأجراء. يقول ابن إسحاق إنه لما بلغ خديجة "ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار"[5].

ويقدم ابن سعد بعض التفصيلات التي تزيد الصورة وضوحًا، فهو يذكر أن أبا طالب حاول إقناع الرسول ﷺ للعمل في تجارة خديجة مقابل مساومتها على دفع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجور له تصل إلى ضعف ما تدفعه لغيره، يقول ابن سعد: "قال أبو طالب: يا ابن أخي، قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين (أي جملين) ولسنا نرمين لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن نكلمها؟ قال: ما أصبيت فخرج إليها فقال: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع أبكار"[1]، فوافقت خديجة على ذلك من دون تردد.

إن ما تقدم يشير إلى أن محمدًا ﷺ كان يمارس التجارة في سوق مكة منذ فترة طويلة، وأنه كان قد اكتسب خبرة وسمعة جيدة بين الناس، مما جعله لا يوافق على العمل بأجور موازية لأجور أقرانه من الشباب الذين كانوا يشتغلون في التجارة.

ويبدو أن الذي حمل الرسول ﷺ على الموافقة على تأجير نفسه للعمل في تجارة الآخرين أنه "لم يكن كبير المال"[2] للعمل فيه وتنميته، كما يذكر الزهري.

وهنالك من الأخبار ما يدل على أن الرسول ﷺ قد شارك غيره في العمل التجاري، فقد روي أن السائب بن أبي السائب قدم على رسول الله ﷺ وكان شريكه قال: "أما تعرفني؟ قال: أما كنت شريكي؟ فنعم الشريك، كنت لا تداري، ولا تماري"[3].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner